شهادة في هذا الكتاب

في معرض تناول المؤلف الناقد الدكتور بيتر جران، الذي يعتبر من أبرز المؤرخين الأمريكيين للتاريخ الاجتماعي وتاريخ النقد الأدبي المقارن كتب عن هذا الكتاب الذي نقدمه للقراء ما يلي:" وهناك دراسة رائدة للأدب الروسي (السوفييتي) في علاقته بالأدب العربي الحديث خاصة في سوريا.

أنظر د. ماجد علاء الدين:" الواقعية في الأدبين الروسي(السوفييتي) والعربي"

(أنظر كتاب بيتر جران" ما بعد المركزية الأوروبية" صفحة 148 -الصادر عن المجلس الأعلى للثقافة - القاهرة).

obeikandl.com

obeikandl.com

مقدمة

تتسم ثقافة أي شعب من الشعوب وحضارته وفنونه، بما في ذلك الأدب، بميزات خاصة بالشعب المكون والمبدع لهذه الحضارة، ولكن وبغض النظر عن الاختلاف والتباعد والتمايز بين الحضارات والثقافات الإنسانية، فإنه يبقى هناك العديد من السمات المشتركة من حيث النشوء والتكون.

وبنفس الوقت من الممكن إيجاد بعض نقاط التقاء وتقارب وموازاة بين الحضارات والثقافات الإنسانية، خاصة بين الدول القريبة من بعضها جغرافياً، أو تملك علاقات صداقة وتعاون خلال مرحلةٍ تاريخيةٍ معينة، في مثل هذه الحالة نجد أن هناك ميزات وسمات مشتركة تقرب الثقافات والحضارات لهذه البلدان من بعضها البعض.

أما خصوصيات الحضارات والثقافات، فهي ترتكزُ بشكلٍ أساسي على الظروف التاريخية الخاصَّة، التي مرَّ بها شعب من الشعوب، مكوناً خلال هذا التطور، وبالاعتماد على العوامل الذاتية والخارجية ثقافته، بل وحضارته عامة. ولهذا غالباً ما يلاحظ الإنسان المُطَّلع التأثير المتبادل بين الحضارات الإنسانية، وخاصة عندما يجري الكلام عن الأدب كجزءٍ لا يتجزأ من تطور الحضارة الإنسانية العامة في ذلك البلد أو غيره، وبما أننا سنقصر مجال بحثنا هنا على دراسة تكون كل من الأدبين: الروسي والعربي في نهاية القرن التاسع عشر، وحتى أواسط السبعينات من القرن العشرين، فيلزم علينا دراسة مسألة العلاقة المتبادلة بين الأدبين في هذه المرحلة.

إن هذا الموضوع شائك ومعقد للغاية، لأنه يعتبر الأول من نوعه، ولم يسبق لأحد أن تناوله ولو بدراسة أو مقالة قصيرة، ولقد كتب نقاد الأدب العربي (وهم في واقع الأمر كُتَّاب أكثر مما هم نقاد) عدة مقالات عن الأدب الروسي أو عن كُتَّابٍ سوفييت من قومياتٍ أخرى ولكنهم كتبوا بعض نتاجهم باللغة

الروسية، لكنها لم تكن دراسات علمية، بل مُجرد انطباعات عن أهمية هذا الكاتب أو غيره، أو عن جملة من الكتاب الروس والسوفييت[1].

لقد تناول بعض النُقاد والكُتَّاب العرب الأدب السوفييتي، وسجلوا بعض آرائهم حوله، لكنَّ هذه المقالات لم تصل إلى المستوى العلمي المطلوب، ولم تكف القراء العرب للإلمام بالموضوع من كافة جوانبه، وقد شرَّعَ المستشرقون المستعربون السوفييت أمثال: يو، كراتشكوفسكي، أ. ي كريمسكي، أ. أ. دالينينا، وغيرهم بدراسة الأدب العربي، لكن دراساتهم ومقالاتهم اقتصرت على دراسة الأدب العربي القديم (في العصور الوسطى)، وهناك بعض المقالات التي تناولت الأدب العربي المعاصر في عصر النهضة المعاصرة، لكنها لم تتعد ثلاثينات القرن العشرين، كما أن أحداً من الدارسين لم يضع هذه المسألة (العلاقة الثقافية بين الأدبين الروسي والعربي موضع البحث والدراسة)، ولذلك يعتبر هذا العمل بمثابة الخطوة الأولى في هذا المجال، وعلى هذه الطريق المتعرجة أحياناً، والوعرة أحياناً أخرى.

وللبحث في هذه المسألة علينا أن لا نتبع الأسلوب المعهود فنأخذ كاتباً روسياً مثلاً وندرسه بالمقارنة مع كاتب عربي ونقارن بين أسلوب هذا وذاك، وبين المواضيع المطروحة، ولُغة كل منهما، وعلاقة الشكل بالمضمون عند الاثنين، والمذاهب المتبعة من قبلهما: الواقعية النقدية، الرومانسية، المستقبلية، الرمزية، الشكلية، الواقعية الاشتراكية... الخ. الأمر الذي نراهُ لدى الكثير من النقاد في الأدب العالمي وفي أدبنا العربي خاصة.

وحسب اعتقادي أن التعميم بين كاتبين على هذا المنوال غير صحيح، فمهما أثر

---

[1] أقصد بالكتاب الروس الذين أنتجوا قبل الثورة الاشتراكية أمثال دوستويفسكي، ،بوشكين، ليرمنتوف وغوغول وغيرهم، والروس . السوفييت، أولئك المخضرمين الذين أنتجوا قبل الثورة وبعدها أمثال غوركي، مايكوفسكي، ليونوف، الكسي تولستوي، والسوفييت، هم من أنتجوا بعد الثورة أمثال شولوخوف، حمزاتوف، سيمونوف، ايتماتوف، وغيرهم، وهنا كما تلاحظون ورد اسم حمزاتوف وايتماتوف فالأول سوفييتي من القومية الداغستانية، والثاني من القومية القرقيزيه ولكن كلاهما، كتب معظم أعماله باللغة الروسية.

obeikandl.com

أحد الكتاب في أدب الآخر، يبقى لكل منهما أسلوبه ولغته وتفكيره، والكثير من القضايا الأُخرى التي تجعل كل كاتب عالماً بحد ذاته، مهما كان التقارب والتوازي بين كتاب الدول الصديقة أو وحتى في نفس الدولة، وفي نفس القومية الواحدة، ونفس المدرسة الأدبية، ولذلك فإنَّ مطابقة كاتب مع كاتب آخر مسألة ساذجة وسطحية، ويجب الابتعاد عنها قدر الإمكان حتى لا يُمسخ أحد الكتاب على حساب الآخر، فكيف الأمر إذن عند مقارنة كاتبين عاش كل منهما في مجتمع يختلف عن الآخر من حيث العادات والتقاليد والظروف التاريخية، وكل منهما تربى على فولكلور وحِكم وأمثال ولغة ذات لهجاتٍ متعددةٍ وما إلى ذلك؟

لهذا كُلُّهُ اخترنا موضوع دراسة الواقعية بين الأدبين الروسي والعربي، آخذين بعين الاعتبار المراحل المختلفة في تطور هذا الأدب وذاك، ولعلَّنا من خلال هذا تمكنَّا من التوصل إلى استشفاف بعض السمات والميزات التي تجمع بين الأدبين في مراحل تاريخية محددة تتقارب أو تتباعد أحياناً حسب الظروف التاريخية، وفي هذا المجال درسنا تأثير الكتاب الروس السوفييت من ممثلي المدرسة الواقعية الاشتراكية في الأدب على نتاج بعض الكتاب العرب، وعلى وجه الخصوص كتاب الواقعية في الأدب السوري، ومن خلال البحث تم تناول العديد من القضايا الجانبية والتي ساهمت في إشباع وإتمام الموضوع الأساسي.

إن الأدب العربي المعاصر كجزءٍ من الأدب العالمي عامة ذو تجربةٍ قصيرةٍ زمنياً إذا ما قورن بالآداب العالمية الأخرى وخاصة الأوربية، فرنسا، إنكلترا، روسيا، إيطاليا، وغيرها.....

ولذلك، ولغيره نجد أن الكُتَّاب في سوريا والوطن العربي لم يصلوا إلى مستوى الكُتَّاب العظماء في الآداب العالمية، وقد كَتب مواهب الكيالي بهذا الخصوص ما يلي:

«نحن لم نكتب حتى هذا الوقت ولا كتاب، يكتب لهُ الخلود، ولذلك فإنَّ

الكتاب السوريين لم يبلغوا بعد مستوى الأدب العالمي، ولا يوجد عندنا نتاج واحد يشبه نتاجات الكتاب العظماء أمثال: مكسيم غوركي، الكسي تولستوي، ميخائيل شولوخوف، وغيرهم.....

حتى الوقت الحاضر لا يوجد بيننا أمثال أراغون وأمادو وبوشكين والسبب في هذا ينحصر بالتالي: استيقظنا، فإذا بنا في القفر في أرض بكر، ترزح تحت ظل المستعمرين والرجعيين زهاء خمسة قرون من الزمن، ودنسوا بقاذوراتهم بعض أسس لغتنا، وعند استيقاظنا كان لزاماً علينا أن نخوض معركة قاسية، من أجل تكنيس أرضنا من كل هذه القاذورات، كان علينا أن نزرع مكانها بذور التقدم[2]».

لقد أدت ترجمة الكثير من روايات وقصص الكتاب الروس، والسوفييت إلى الأدب العربي وعلى وجه الخصوص نتاجات مكسيم غوركي ميخائيل شولوخوف ليونوف، وغيرهم إلى أن يتأثر الكتاب العرب التقدميون بنتاجات مُمثلي المدرسة الواقعية الاشتراكية التي استهوتهم جداً، ولقد استفادوا منها كثيراً وخاصَّةً من مبدأ الإخلاص للحياة، وللشعب، والعمل بإخلاص لخدمة قضاياه وأهدافه، وخير برهان على ذلك ما أنتجه الكتاب السوريون التقدميون أبناء الشعب السوري الكادح، والمناضلون من أجل الاستقلال والتقدم الاجتماعي ومنهم: ليان ديراني ـ مواهب كيالي ـ حسيب كيالي ـ حنا مينه ـ سعيد حورانية ـ وصفي البني ـ شوقي بغدادي، وغيرهم ممن تنادوا لتشكيل رابطة الكتاب السوريين، ورفضوا رفضاً باتاً شعار «الفن للفن» الذي دعا إليه بعض الشعراء والكتاب من أنصار الشكلية[3]، واتخذوا لهذه الرابطة شعار

---

[2] النص مترجم عن الروسية من مقالة لمواهب الكيالي نشرت في كتاب (الأدب العربي المعاصر) موسكو ـ 1960. ص23.

[3] الشكلية: (1. اصطلاح الشكلية (فورماليزم) يعود إلى الكلمة الفرنسية FORMALISME، والأصل اللاتيني FORMALIS والتي تعني تفضيل الشكل على المضمون في جميع أنواع الفنون وخاصة في الأدب ومن ممثلي المذهب الشكلي ك. فيدلير (ألمانيا). مي. غانسيلك (السويد) غ. ريد (بريطانيا العظمى) وغيرهم ممن رأوا أن

obeikandi.com

جميع الكتاب التقدميين في العالم «الفن لخدمة الشَّعب» لقد درس الكتاب أعضاء الرابطة الواقع السوري دراسة دقيقة، وعكسوا هذا الواقع في نتاجاتهم الأدبية على اختلاف أنواعها؛ نثراً كانت أم شعراً، ومع تطور الكتاب واستفادتهم من تجربة الأدب العالمي أصبحوا يتخذون المواقع الأكثر فعالية ضِدَّ البورجوازية والإقطاعية.

وبفضل هذه النتاجات تدرَّبَ وتعلَّمَ الشعب السوري طرق النضال ضد المستغلين من الخارج، وضد أعداء الشعب العربي الكادح من الرجعية في الداخل، وضد بقايا الاستعمار والتخلف، ومن أجل العدالة والمساواة والحياة الأفضل.

في أيلول /1954/ انعقد في دمشق المؤتمر الأول لكُتَّاب البلدان العربية، وقد عقد هذا المؤتمر بمبادرةٍ من رابطة الكتاب السوريين، واتخذ العديد من القرارات والتوصيات الهامة بخصوص مُهمات وأهداف الأدب العربي التقدمي المعاصر، الذي كان لزاماً عليه أن يقوم بدوره في خدمة «السلم والحرية»، وشارك في هذا المؤتمر كتاب من سورية، مصر، لبنان، العراق، الأردن، ولقد قال شحاذي الخوري من على منبر هذا المؤتمر: «الحرية تعني ـ تحرير الشعب العربي من قيودِ الذِّلِ والاضطهاد، اللذين يعاني منهما تحت ضغط واستغلال الإقطاعية والإمبريالية والرجعية، ومهمَّة الكُتَّاب تنحصر بالوجوب عليهم ـ وهذه مهمة تاريخية ـ أن يفضحوا جوهر هذه القوى الغاشمة أمام القراء، وأمام كل الشعب، والارتقاء بالشعب لدرجة النضال الصدامي مع هذه القوى، أما السِّلم فهو ـ النضال الدائم ضِد الإمبريالية بهدف الطَّرد الكامل لها ولآثارها من الأراضي العربية وتحرير الشَّعب، المتعطش للسعادة والسلم[4].

الفن هو التلاعب بالشكل. وطريقة لتكوين قيم جمالية (خالصة) متحررة كلياً من الروابط الأخلاقية، السياسية، الحياتية والمضمون الفعلي الواقعي. بينما يرى الكتاب الواقعيون الاشتراكيون أن (الفن لخدمة المجتمع) وعلى الأدب أن يشارك في النضال الاجتماعي، وفي تربية الناس وأخلاقهم ومثلهم).

[4] من وثائق المؤتمر الأول للكتاب العرب. دمشق. أيلول. 1954، ص5. 6.

obeikandl.com

لقد اعترف العديد من الكتاب والنقاد العرب بالتأثير الكبير من جانب الأدب الروسي والسوفييتي على نتاجهم الأدبي وعن هذا التأثير غالباً ما تحدث الكتاب والنقاد العرب في مقالاتهم المنشورة في الصحف والمجلات وفي خطبهم في المحافل الأدبية المحلية والعالمية، ومن هؤلاء كان الكاتب اللبناني المعروف ميخائيل نعيمة، وحمد شرارة، ومحمد مهدي الجواهري، وبدر شاكر السياب من العراق، ومحمود تيمور، وسلامة موسى، وعبد الرحمن الخميسي، وعبد الرحمن الشرقاوي ونجيب محفوظ، وغيرهم من مصر، ومواهب الكيالي، وشوقي بغدادي، وحنا مينه من سورية، وغيرهم الكثير والكثير.

كان على الكتاب السوريين التقدميين أن يخوضوا نضالاً عنيفاً ضِدَّ المحافظين الذين حاولوا عرقلة مسيرتهم، وتنادى الكتاب التقدميون للنهوض بالأدب العربي من جديد وتكوين الأدب العربي التقدمي الحديث على أسس جديدة، كما وقفوا صفاً واحداً ضد أن يكون الأدب الحديث تقليداً للأدب العربي الكلاسيكي.

واعتمد الكُتَّاب التقدميون الثوريون في نضالهم على تقاليد وتراث المدرسة الواقعية في الأدب العالمي، مصورين نضال العمال والفلاحين الذين يعتبرون - حسب نظرية المدرسة الواقعية الاشتراكية - القوة الأساسية في تغيير المجتمع وتطوره، ولقد ساعدتهم في هذا النضال الثروة الفنية من التجارب في الأدب الثوري العالمي، وعلى وجه الخصوص في الأدب الروسي - السوفييتي خلال فترةٍ تزيد عن القرن.

هذا من جهةٍ، ومن جهةٍ أخرى فإن نشاط القوى المحافظة، وأنصار «الفن للفن» وغيرهم من الاتجاهات الرجعية قد انحسر باستمرارٍ وبشدةٍ أمام التيار العارم للأفكار التقدمية، ولقد أشار الأكاديمي كراتشكوفسكي إلى التطور السَّريع في الأدب العربي في بداية القرن العشرين على أيدي الكتاب العرب حيث قال: «في المستقبل، بل في القريب منه، إن الأدب العربي الجديد سوف

obeikandl.com

يدخل في الرصيد الذهبي للأدب العالمي المعاصر[5]».

ويتكون الكتاب من ثلاثة أقسام أساسية: في الفصل الأول من القسم الأول يجري الكلام عن نتاج الكاتب الروسي السوفييتي العظيم مكسيم غوركي ـ مؤسس مدرسة الواقعية الاشتراكية في الأدب السوفييتي، ويتم الكلام باختصار عن أهمية تراثه بالنسبة للأدب العالمي، وعلى وجه الخصوص، بالنسبة للأدب العربي عامة، والسوري خاصة، وفي الفصل الثاني من نفس القسم الأول نقدم لمحة تاريخية عن تعرف العرب إلى الأدب الروسي ـ السوفييتي، ومن خلال ذلك يجري الكلام عن العلاقات الثقافية الروسية ـ السوفيتية ـ العربية.

أما في القسم الثاني، فإننا نتحدث عن الأدب الروسي السوفييتي خلال الثلاثينات والأربعينات من القرن العشرين، فنقدم في الفصل الأول من هذا القسم لمحة سريعة عن نتاجات شولوخوف ليونوف، وغيرهما من الكتاب السوفييت المكملين والمتممين لتقاليد مكسيم غوركي الأدبية، والمتابعين لمدرسة الواقعية الاشتراكية التي أسسها، والمطورين لها إلى الأمام بتراثهم الأدبي الكبير، ويخصص الفصل الثاني من هذا القسم لتحليل بعض نتاجات الكُتَّاب السوريين التقدميين في الأربعينات ـ والخمسينات من القرن العشرين، وبشكل أساسي نتاج الكتاب السوريين ـ أعضاء الرابطة لأنَّهم في الواقع كانوا أقرب من غيرهم إلى مدرسة الواقعية في الأدب، وهنا نعكس: أهم المواضيع والقضايا التي شغلت اهتمام وتفكير هؤلاء الكتاب في نضالهم من أجل تكوين الأدب العربي التقدمي، وفي هذا الفصل تتضح أهمية هذه المرحلة الأدبية بالنسبة لتطور الأدب ليس في سورية وحسب، بل في كافة الأقطار العربية.

في القسم الثالث يجري تحليل أدبي للعلاقات بين الأدبين السوفييتي والعربي وعلى وجه الخصوص الأدب العربي السوري في الخمسينات والستينات من القرن العشرين، كما تُعرض المسائل الأدبية الملحة بالنسبة لتطور كل من الأدبين في

---

[5] كراتشكوفسكي ا. يو. الجزء الثالث، طبعة موسكو ولينيغراد عام 1956، ص104 . 105.

obeikandi.com

المرحلة الراهنة، ويجري تحليل بعض نتاجات الكُتَّاب العرب الذين عكسوا أوضاع الطبقة العاملة، الفلاحين، وضع المرأة، المثقفين، ويتم التوقف عند موضوع «أدب الحرب» في الأدبين.

وعلى امتداد صفحات الكِتاب تَجري مُقارنة أدبية حسب أُصول الأدب المعاصر بين الأدبين الروسي والعربي، وخاصة في تلك الأماكن التي يتضح فيها التقارب بين الأدبين حول أُطر مدرسة الواقعية الاشتراكية.

وفي آخر الكتاب قدمنا مُلحقاً للتعريف بالإعلام الذين مرَّ ذكرهم في الكتاب وقصدنا من وراء ذلك أن نعرف القراء العرب بأكبرِ عددٍ ممكنٍ من الكُتَّاب العرب والأجانب، بتقديم نبذةٍ مختصرةٍ عن نتاجهم الأدبي.

ونرجو أن يُقدم هذا الكتاب فائدة ملموسة للكُتَّاب ولجميع العاملين في مجال الأدب والدارسين في كليات الآداب والمعاهد الأدبية، كما أتقدم بالشكر العميق لكافة الأساتذة الذين أشرفوا على إعداد أطروحة الدكتوراه التي شَكَّلَ هذا الكتاب قسماً أساسياً منها.

د. ماجد علاء الدين

obeikandl.com